

## مراجعة كتاب: "قيمة ومعنى الحياة" (2020) لكريستوفر بيلشو

### Book Review: "The Value and Meaning of Life" (2021) Christopher Belshaw

مراجعة: محمد زكري

August 17, 2021

صدر الكتاب سنة (2020)، ضمن منشورات روتليدج Routledge، عنوانه في النسخة الإنجليزية: The Value and Meaning of Life لمؤلفه كريستوفر بيلشو (Christopher Belshaw). يقع هذا الكتاب في حوالي خمسة وستين ومائتي صفحة (265)، ويعدُّ بمثابة ملخّص جامع لأهم الأفكار التي عبّر عنها بيلشو في كتبه السابقة. يضمُّ الكتاب، بين دفتيه، مقدّمةً وعشرة فصول، بالإضافة إلى خمسة ملحقات يعالج كلٌّ منها قضيةً بعينها.

"لا أستطيع سلب حياةٍ واحدة، كما أنني لا أستطيع إنقاذ الجميع". تبدو هذه العبارة شديدة الوضوح، ولكنّ خلفها دلالات لا حصر لها تجعلنا نتأمّل قيمة الحياة. بعد ما خلفه الوباء الذي تعيشه الأرض من دمار أودى بحياة الملايين، سيظل "كوفيد - 19" راسخاً في الأذهان، لا بعدّه مجرد تجربة عابرة، بل بحسبانته حدثاً أعاد إلى الإنسان حقّه المشروع في التّساؤل عن ماهية الحياة، وعن قيمتها. إنّ السّؤال عن الحياة سؤال عن الإمكانيات البشريّة التي لا حصر لها، وبيان للمحدوديّة التي تفرضها هشاشة هذا الكائن. لا نملك شيئاً نستطيع أن نضاهي به عوامل الطّبيعة، باستثناء قدرتنا الفريدة على إعمال العقل، والتّفكير في ما وراء الحدود، لكننا على الرّغم من ذلك نظلُّ أسرى للجسد، وخاضعين لإمكانياته المحدودة، لحاجاته، ورغباته، كما لمرضه وموته.

\*

ما شُغل المؤلّف بشيء، انشغاله بالقضايا المصيرية، والأسئلة المقلقة التي يعيشها الإنسان، والتي حظيت، ولا تزال، باهتمام، واسع، في الأوساط الفلسفيّة والمعرفيّة. ينطلق بيلشو في مقدّمة عمله من سؤال مشروع، يكاد أن يكون نسياً منسياً بالنسبة إلينا، هل للحياة من قيمة؟ هذا السّؤال البسيط في مظهره، الخطير في

## منشورات جمعية الفلسفة

جوهره، لا يمكن إلا أن يثير الدهشة لدى الإنسان العادي، وأن يوقظ فيه حرارة التساؤل. صار السؤال عن قيمة الحياة، سؤالاً عن المصير الذي تمضي إليه البشرية، وترسمه لنفسها؛ إذ السؤال عن قيمة الحياة، في ذاته، سؤال عن قيمة الإنسان. لكن هذا السؤال يحمل ما لا حصر له من الأسئلة الفرعية، هل الحياة واحدة أم أنّها حيوات؟ وما جوهرها وكنهها؟ وكيف تصير الحياة ذات معنى؟ وما الذي يصنع معنى الحياة؟ هذه الأسئلة، على تقارب بينها في الدلالة، تحمل العناصر الأولى لفلسفة الحياة.

كثيراً ما نتغنى بقدسية الحياة، ولكننا غير قادرين على التعبير بوضوح عن المعنى الذي تكون به الحياة مقدّسة، بالفعل، في الدين كما في حقوق الإنسان، يحرم سلب الحياة مهما كان الدافع من وراء ذلك، ولكن ما الذي يجعل من القتل إمكانيةً بالنسبة إلى الأشخاص؟ للحياة حرمتها، وقدسيّتها، تلك هي الخاصية التي يعالجها، والتي يطلق عليها لفظ حُرمة (Sanctity) تمتد لتشمل أشياء الوجود كلّها. وصارت حياة الإنسان محاطةً بهالة من القداسة، وأمامه ما عاد ينظر إلى الطبيعة، إلا في علاقة بما تقدّمه إلى الإنسان الذي صارت قيمته مركزية في الوجود بأسره. غير أنّ هذه المركزية المقدّسة التي اكتسبتها قيمة الإنسان، خاصّة في علاقتها بالبعد الديني، أصبحت تعاني كثيراً من الشروخ والفجوات في الأزمنة الراهنة. أو لنقل إنّ تلك القيمة أصبحت محلّ نزاع في واقعنا المعاصر؛ إذ ما عاد الإنسان ذلك الكائن الذي يحتلّ المكانة المركزية في الوجود، ولا هو سيد على الكائنات، وإنما هو جزء بسيط من هذا النظام.

ينتقل بيلشو، إلى معالجة مسألة "الألفاظ" (Terms)، وإلى تناول المفاهيم المرتبطة بمسألة قدسية الحياة وحرمتها. نمتلك تصوراً، خاصّاً، عن الحياة، يدفعنا إلى الإغلاء من قيمتها، وذلك لخصوصيّتها. ترتبط قيمة الحياة، بكثير من المفاهيم، وبالأخصّ تلك التي نتداولها بشكل يوميّ، كالخيرية، ونفائضها، والشر وما يعدله. و، بالتالي، تصير قيمة الحياة متأصلةً في تلك الروابط التي نصنعها في علاقتنا بأشياء العالم، وأفكاره. قد يتساءل المرء، كيف يمكن لشخص ما أن يبذل حياته، أغلى ما يملكه، في سبيل أرضه أو عائلته؟ أو كيف يمكن لشخص ما أن يبذل حياته في سبيل فكرة آمن بها؟ الأمر الذي يدعونا إلى التفكير في الحياة، لا على أنّها شيء، في ذاته، بل هي في ما تعلّقت به من عناصر الوجود الماديّة والفكرة على قدم سواء. اشتغل بيلشو على العديد من الموضوعات باقتضاب غير مخلّ بالوضوح، ولا بجانب للمنطق السليم في العرض، ووقف عند الفروق الجوهرية بين المتناقضات؛ كالخير والشر، والفاضل والمردول، والنافع والضار، مبيّناً أنّ الاكثرات بهذه المفاهيم، وإن كان مداره حول الحياة، إلّا أنّه يتجاوزها بشكل من الأشكال.

سبق لفرديريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) أن ألّف كتابه الشّهير: ما وراء الخير والشرّ: مقدّمة لفلسفة المستقبل (Jenseits von Gut und Böse - Vorspiel einer Philosophie der Zukunft) (1866)، يعالج نيتشه في هذا المؤلّف، من بين قضايا كثيرة، مسألة تطوّر الفضائل، ويوجّه انتقاده بشدّة، إلى الدين والعلم والسياسة، والأخلاق، ويضع العالم المعاصر أمام أكبر القضايا والمشكلات على الإطلاق. وفي نفس السياق يعمل بيلشو على الفصل بين الحياة بوصفها حركةً ذووابة تمتلئ بالسعادة والألم، والشوق الدافع، وهي، بكلّ تأكيد، خلاف تلك الحياة المثالية التي تحدّدها المفاهيم والثنائيات التي تفترض بدورها البحث عن

### منشورات جمعية الفلسفة

سبب للأشياء كلها. هب أنك تبحث لكل حدث عن سببية تربطه بمسببه، أو لكل فكرة عن علتها وعلة ما جاءت له، فإن الحياة تنصرف من بين يديك.

يتوجه بيلشو إلى مسألة "القيمة"، ويؤكد على صعوبة التعاطي مع هذا المفهوم، أو حتى إمكانية تقديم شرح مفضل له، ولذلك يعمل على ربطه بمجموعة من المفاهيم الأخرى، كالكمات، والأشياء، والأنواع، مسترشداً في ذلك بالحوار اليومي، من أجل التمييز بين الأنواع المختلفة من القيم التي يمكن أن تكتسبها الأشياء. لكن تطفح صعوبة خاصة في التعامل مع تلك المفاهيم، ذلك أنها تختلف في استعمالها الفلسفي عن الاستعمال اليومي المتداول، ولذلك يكون تقديم المثل عنها من الواقع أمراً صعباً، ومثيراً للجدل في كثير من الأحيان. إن الأشياء، على سبيل المثال، لا تمتلك إلا قيمةً نسبيةً، بخلاف الكائنات العاقل (= الأشخاص) التي تمتلك قيمةً مطلقةً (إيمانويل كانط: تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق)، إن القيمة التي تمنحها للأشياء يمكن أن تتغير بحسب المنظور الذي نتخذه إزاءها، وباختلاف الأزمنة التي ننظر فيها إلى تلك الأشياء، في حين أن القيمة التي لدى الإنسان تظل ثابتةً.

عمد بيلشو، أيضاً، إلى تناول مسألة "الحياة" بصيغة الجمع؛ والسبب في ذلك أن الإنسان لا يعيش حياةً واحدةً، بل "حيوات" إن صحّ التعبير، إنه يعيش "هنا والآن" على حدّ تعبير الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر، ولكنّه يعيش محتملاً بآلام الماضي، وبآمال المستقبل، إنه كائن متعدّد الأبعاد. غير أن الإنسان يكون، في كثير من الأحيان، أسيراً لتلك الرؤى المسبقة لديه عن الحياة، ولا يستطيع تجاوزها، يعيش أسيراً لأوهامه، ويعلي من شأنها، من دون أن تكون لديه أيّ رغبة في تحطيمها، وتجاوزها نحو واقع أفضل. لكن ما الدافع الذي يقودنا إلى تقدير الحياة؟ لن يكون الجواب بسيطاً من قبل أن تقديرنا للحياة مردّه إلى الخوف من الموت، بل الدافع إلى تقدير الحياة هي تلك الشرارة التي لا تخبو من الرّغبة في التقدّم والإقبال على الحياة من دون تردّد.

يوجد مفهوم آخران لا يقلان أهميةً عن المفاهيم السابقة، هما "التمايز" و"الاختيار"، يفرّد لهما بيلشو حيزاً مهماً، من دراسته ذلك أن "التمايز" من سمات الإنسان في تحديد ما عساها تكون "الحياة الطيبة"؟ لا يقبل الإنسان بوضعه، ودعواه في ذلك أنه لم يجد الانسجام التام، وأن حياته ملؤها النقص، ويمضي في البحث عن حياة كاملة من غير إدراك ضعف حجّته؛ لأن الحياة أساسها النقص، هب أن شخصاً ما أدرك يوماً معنى النقص والحرمان، هل كانت حياته لتكون مثل حياة البشر؟ إن الدافع إلى البحث عن الأفضل يكون، في الغالب، محفوفاً بالاختيارات، وكما قال دانتي أليغيري: "إنّ الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الحسنة"، فإن الاختيارات لن تكون، بالدرجة الأولى، سبباً في تحقيق "الحياة الطيبة"، أو في تحسين صورة الحياة كما نألفها، إن حياتنا ليست كتاباً كي نطوي صفحته، كما أنها البدايات الجديدة ليست متاحةً، بل إنها تجربة فريدة ينبغي أن تعاش. يورد بيلشو مفهوماً آخر؛ هو "مناهضة الولادة"، ذلك أن حركة ظهرت في الآونة الأخيرة، تحتج على كثرة الولادات، وما ينجم عنها من أخطار تهدّد الأرض. وفي هجائهم للحياة ما يذكرنا بقول الشاعر النمر بن تولب:

أقام وليت أمّي لم تلدني

ألا يا ليتني حجرٌ بواد

أو ما جاء على لسان أبي العلاء المعري:

وما جنيت على أحدٍ

هذا جناه أبي علي

## منشورات جمعية الفلسفة

وحتى إنّنا لنجد كثيراً من هذا السخط على لحظة الولادة في كتابات إميل سيوران. لكنّ هذه النظرة التّشاؤميّة التي أحاطت بلحظة "الولادة" تنظرُ إليها بوصفها مصدر الألام جميعها، في حين أنّ معياري "اللذة والألم" ليسا كافيين من أجل تحديد ماهية الحياة الطيبة، وتبين الأشياء الجيدة فيها من السيئة. فالآلام مثلاً أكثر واقعيّةً، وأثقل وزناً من الملذات نفسها، يظلُّ الألم قوياً حتى في ظل أرقّ المُتّع، والقليل منه كافٍ ليُجعل الحياة من دون معنى. سيكون، إذن حسب بيلشو، من غير المجدي التعاملُ مع لحظة الولادة على أنّها بداية الشّر المطلق؛ لأنها وببساطة لا تحملُ، في ذاتها، أيّ شروط قبليّة لهذا الكائن الذي سيستضيفه الوجود. ينتهي بيلشو إلى ثلاثة مفاهيم رئيسة؛ هي كالتالي: **المعنى، والأبدية، والإنقراض**. على أنّ بين هذه المفاهيم تباعداً في الدّلالة، إلا أنّ مدارها على الحياة. فالسؤال عن **المعنى** ينبغي أن يكون على قدر من التّواضع، والذي يسمحُ بإدراك الوضوح الكامن في الحياة، والذي يؤدّي إغفاله أو التّعقيد القائم حوله إلى تكوين نظرة سوداويّة عن الحياة. وبالتالي يسمح لنا التّظر إلى الحياة بالاقتران على تفاصيلها الدّقيقة، مثل النوتات الموسيقيّة البسيطة التي تجتمع لتؤلّف سمفونيّة تتحدّى المألوف. يرافقنا دائماً ذلك الشعور بالرّغبة في الإبقاء على وضع ما، إلى درجة أننا نريد بشدّة أن يكون أدياً، من غير أن ندرك أن لا شيء يبقى إلى الأبد على حاله لأن كلّ الأشياء في تغيير مستمر على حدّ تعبير هيراقليطس. ولئن كنّا مرغمين على "الفناء"؛ فإنّ هذا الإحساس يؤثّر على الحياة بشكل مطلق؛ لأنّه سينهي، لا محالة، كلّ صلة للإنسان بالواقع المعيش، وسيفقد معه القدرة على إدراك المغزى من هذه الحياة وقيمتها.

## ليس ختماً وإنما بدايةً للحياة

يتبنى بيلشو مقارنةً مفاهيميّة، استطاع من خلالها إعادة التّساؤل عن معنى وقيمة الحياة، ولئن ذكّرنا موقفه بشيء فإنّما يذكّرنا بالرّسالة الشهيرة التي كتبها أبيقور إلى تلميذه مينيسي: "على الشاب ألا يتأخر عن التّفلسف، وعلى الشّيخ ألا يملّ من تعاطي الفلسفة؛ إذ لا يحقّ لأحد القول بأنه لا يزالُ شاباً أو أنه أصبح طاعناً في السن لكي يعمل على اكتساب صحة النفس". ويضيف "تعوّد على اعتبار الموت لا شيء بالنسبة إلينا؛ إذ يكمن كل خير وكلّ شر في الإحساس، والموت هو فقدان الكليّ للإحساس؛ فالموت لا يمّت إلينا بصلة، وتجعلنا معرفتنا بذلك نقدرّ مباحج هذه الحياة القصيرة حقّ قدرها، فلا نضيف إليها زمناً لا محدوداً بقدر ما نجدها من الرّغبة في الخلود"<sup>(i)</sup>.

i - أنظر: أبيقور، الرسائل والحكم، دراسة وترجمة: جلال الدين سعيد، (مصادر الفلسفة، الدار العربية للكتاب،)، ص 204.